

حديث (مفاتح الغيب)

دراسة عقدية

د. ابتسام بنت عبدالرحمن الفالح

أكاديمية سعودية، استاذ مساعد بكلية الآداب بجامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

ملخص البحث

تعنى هذه الدراسة بشرح حديث «مفاتح الغيب» وهي خمسة على أساسها قُسم البحث الى خمسة مباحث.

وقد بدأت البحث بمقدمة ذكرت فيها أهمية هذا الموضوع والهدف من الكتابة فيه، ثم تمهيداً ذكرت فيه الحديث ومكانته وشرحه إجمالاً، واختصاص الله عز وجل بعلم الغيب، وتعريف مفاتح الغيب وأقسام الغيب.

بعد ذلك قسمت البحث إلى خمسة مباحث، كل فقرة في الحديث جعلتها في مبحث مستقل. ثم ختمت هذه الدراسة بخاتمة وضعتُ فيها أهم ما توصلت إليه إجمالاً.

والهدف من هذه الدراسة هو تبصير الناس بما توصل اليه العلم الحديث من أمور تتعلق بفهم هذا الحديث فهماً لا يتعارض مع كون الله سبحانه وتعالى اختص بعلم الغيب، وأن هذه الأمور من مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا الله.

ومن أهم نتائج البحث أن مفاتح الغيب الخمس محجوب علمها عن الخلق جميعاً، ولا يعلمها علماً ذاتياً إلا الله وحده، أما علم الله المحيط الشامل لعالم الشهادة، فليس من مفاتح الغيب الخمس .

Abstract

A Theological Study of the Hadith: "The Keys of the "Unseen are Five

Dr. Ibtisam bint Abdurrahman al-Falih

This study is concerned to explain the Hadith: (The Keys of Unseen); these are five in number. Based on that, the research divided in to five sections, I began it with an introduction, stating the importance of this topic and the goal of writing it. Then prelude stating the Hadith's position and explanation, the specialty of the Almighty Allah with the knowledge of the Unseen, the definition of the keys of the unseen, and the subdivisions of the unseen. After that, the research has been divided in to five subchapters; as each passage of the Hadith forms a subchapter. Then, the study ended with a conclusion stating the most important findings briefly.

The aim of this study is to enlighten people about the matters of undestanding, the modern science has reached, relating to this topic, without affecting the fact that God almighty singled out with the knowledge of the unseen, And that these keys of the unseen which no one knows but Allah. Of the outcomes the most important one is that the five keys of the unseen are blocked to be known for all of the creation, and no one knows about these keys by himself but Allah. The comprehensive, and extensive knowledge of Allah to the outer world is not of the five unseen keys.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، والصلاة والسلام على النبي الأمي الكريم وآله وصحبه وسلم تسليما كثيراً.

أما بعد:

فإن الله قد أحاط بعلم الغيوب كلها وهو شاهد على علم الشهادة كله، لهذا قال الله تعالى عن نفسه: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾[الرعد: ٩]، فالغيب ما غاب عن الناس، والشهادة ما شهدوه وأبصروه وعاينوه، فعلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تام، وكامل، ومحيط بكل شيء، لم يسبقه جهل، ولا يلحقه نسيان، قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[الأنعام: ٥٩].

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنده مفاتح الغيب، وهي التي سيأتي ذكرها مع الشرح في هذا البحث، كما أنه عَزَّوَجَلَّ أحاط علمه بالحبة في ظلمات الأرض، وبالورقة الساقطة فيها، وبالرطب واليابس ومثل ذلك وأعظم منه علمه بمكاييل البحار وعدد قطر الأمطار، وما في البر من مثاقيل الجبال وعدد حبات الرمال، كل ذلك أحاط به جل جلاله وتباركت أسماؤه إحاطة كاملة.

الدراسات السابقة للموضوع:

اعتنى العلماء بهذا الحديث قديماً وحديثاً، شرحاً وتفصيلاً، فتتبعت ما كتب فيه فلم أقف على دراسة عقدية تجمع بين ما ذُكر من شرح له وبيان ما توصل اليه العلم في العصر الحاضر من معانٍ جديدة تضاف الى ما ذكره

السابقون من السلف في شرح هذا الحديث، حتى يتبين الأمر في أن ما توصل اليه العلم من معرفة لبعض الأمور التي تتعلق بهذا الحديث لا ينافي اختصاص الله عَزَّوَجَلَّ بعلم مفاتح الغيب.

الهدف من البحث:

تبصير الناس بما توصل اليه العلم الحديث من أمور تتعلق بفهم هذا الحديث فهماً لا يتعارض مع كون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ اختص بعلم الغيب، وأن هذه الأمور من مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا الله.

وقد بدأت البحث بمقدمة ذكرت فيها أهمية هذا الموضوع والهدف من الكتابة فيه، ثم تمهيداً ذكرت فيه الحديث ومكانته وشرحه إجمالاً، واختصاص الله عَزَّوَجَلَّ بعلم الغيب، وتعريف مفاتح الغيب وأقسام الغيب. بعد ذلك قسمت البحث إلى خمسة مباحث، كل فقرة في الحديث جعلتها في مبحث مستقل. ثم ختمت هذه الدراسة بخاتمة كتبت فيها أهم ما توصلت إليه إجمالاً.

أسأل الله إخلاص النية وصلاح العمل وصلى الله وسلم على نبينا محمد وصحبه أجمعين.

التمهيد

متن الحديث

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «**مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله**»[1].

وعن سالم بن عبدالله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتح الغيب خمس ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾[لقمان: ٣٤]»[2].

وعن إياس بن سلمة قال: «حدثني أبي أنه كان مع النبي ﷺ إذ جاءه رجل بفرس له يقودها عقوق، ومعه مهرة له يتبعها، فقال له: من أنت؟ قال: أنا نبي الله، قال: ومن نبي الله؟ قال رسول الله، قال: متى تقوم الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: غيب، ولا يعلم الغيب إلا الله، قال: متى تمطر السماء؟ قال: غيب ولا يعلم الغيب إلا الله، قال: أرني سيفك، فأعطاه النبي ﷺ سيفه، فهزه الرجل، ثم رده إليه، فقال النبي ﷺ: أما إنك لم تكن تستطيع ما أردت، قال: وقد كان الرجل قال: أذهب إليه فأسأله عن هذه الخصال، ثم أضرب عنقه»[3].

---

(١) اخرجه البخاري في صحيحه ح (٤٦٩٧) (٨/ ٢٢٥)- ت: د. مصطفى ديب البغا - ط٣ (١٤٠٧)- دار ابن كثير ودار اليمامة بدمشق.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ح (٤٦٢٧) (٨/ ١٤١).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه - =

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان النبي ﷺ بارزاً يوماً للناس فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه ورسله، وتؤمن بالبعث. قال: ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة، وتصوم رمضان. قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: متى الساعة؟ قال ﷺ: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها اذا ولدت المرأة ربتها، فذاك من أشراطها، واذا كان الحفاة العراة رؤوس الناس، فذاك من أشراطها، في خمس لا يعلمهن الا الله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾[لقمان: ٣٤ ثم انصرف الرجل، فقال: ردوا علي، فأخذوا ليردوا فلم يروا شيئًا، فقال: هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم»[(١)].

مكانة الحديث:

يؤكد الحديث على معنى غاية في الأهمية، وهو انحصار علم الغيب في الله سبحانه، فلا يعلم الغيب أحد إلا الله، وذكر الحديث أنواعًا من الغيوب التي لا يعلمها إلا الله - جل وعلا - ، وتخصيصها بالذكر لتعلقها بحياة الإنسان ورزقه ومصيره، فذكر اختصاص الله بعلم قيام الساعة، والتي تمثل بداية حياة الإنسان في الدار الآخرة، وذكر اختصاص الله بعلم نزول الغيث وهو سبب رزق الإنسان وحياته على الأرض، وذكر اختصاص الله بعلم ما اشتملت عليه

=

(١/ ٤٩)- دار الكتاب العربي.

(١) اخرجه البخاري في صحيحه ح (٤٧٧٧) (٨/ ٣٧٣).

أرحام النساء من ذكور وإناث ومعرفة أحوالهم من سعادة وشقاءً وأرزاق وآجال، وذكر اختصاص الله بعلم ما يكتسبه الإنسان في غده من علم أو عمل أو رزق، واختصاصه سبحانه بعلم مكان موت هذا الانسان، فهذه الأمور الخمسة هي مفاتيح الغيب وليست كل الغيب بل هي منها.

قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام: ٥٩].

اختصاص الله عَزَّوَجَلَّ بعلم الغيب:

علم الغيب من الأمور التي استأثر الله تعالى بها، وخص بها نفسه – جل وعلا–، دون من سواه من ملك مقرب أو نبي مرسل، وهو يطلع من يرتضيه من رسله على بعض الغيب متى شاء وإذا شاء، وبذلك جاءت الآيات والأحاديث، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾[هود: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ٢٠]. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾[الكهف: ٢٦]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران: ١٧٩]. وقوله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[الأنعام: ٥٠].

يقول الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: «قل لهؤلاء المنكرين

نبوتك: لست أقول لكم إني الرب الذي له خزائن السماوات والأرض، فأعلم غيوب الأشياء الخفية، التي لا يعلمها إلا الرب الذي لا يخفى عليه شيء، فتكذبوني فيما أقول من ذلك؛ لأنه لا ينبغي أن يكون رباً إلا من له ملك كل شيء، وبيده كل شيء، ومن لا يخفى عليه خافية، وذلك هو الله الذي لا إله غيره»(١).

ومن الآيات في هذا المعنى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[النمل: ٦٥] يقول الإمام القرطبي في تفسيرها: «فإنه لا يجوز أن ينفي الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ شيئا عن الخلق ويثبته لنفسه، ثم يكون له في ذلك شريك، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[النمل: ٦٥] وقوله تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾[الأعراف: ١٨٧]. فكان هذا كله مما استأثر الله بعلمه لا يشركه فيه غيره»(٢).

ومن أصرح الآيات دلالة قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[الأنعام: ٥٩]، وتفسير مفاتح الغيب في سورة لقمان، قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾[لقمان: ٣٤]، يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير آية سورة لقمان: «هذه مفاتيح

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري (١١/ ٣٧٢)، دار المعارف، مصر.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد القرطبي (٤ / ١٧) دار احياء التراث العربي، بيروت.

الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها، فعلم وقت الساعة لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به علم الملائكة الموكلون بذلك ومن يشاء الله من خلقه، وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه الله تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى أو شقياً أو سعيداً، علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه، وكذا لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخراها، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[لقمان: ٣٤] في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان، لا علم لأحد بذلك، وهذه - أي الآية - شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾[الأنعام: ٥٩] وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس: مفاتيح الغيب»[(١)].

وذلك في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ أنه قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»[(٢)].

فالآيات والأحاديث السابقة، تدل دلالة قاطعه على اختصاصه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعلم الغيب دون سواه من الأنبياء والرسل والملائكة وغيرهم.

والإيمان بالغيب هو أساس الإيمان كله؛ لأن أركان الإيمان كلها من الأمور الغيبية، وقد بين الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه المبين أن الإيمان بالغيب من صفات المؤمنين المتقين فقال سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى

(١) تفسير القران العظيم، ابن كثير القرشي الدمشقي (٦/ ٣٥٢)، دار طيبة (١٤٢٢/ ٢٠٠٢م).

(٢) سبق تخريجه (٢).

لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[البقرة: ١ – ٥].

والرسل – عليهم الصلاة والسلام – مع أنهم أفضل الخلق وأحبهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وقد خصهم الله بمزايا كثيرة وأكرمهم بمعجزات عديدة، لم يدع أحد منهم علم الغيب، بل جميعهم كانوا يتبرؤون من ذلك، ويردون علم الغيب إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فنوح – عليه السلام – قال لقومه: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[هود: ٣١].

ورسولنا محمد ﷺ وهو سيد الرسل والأنبياء أجمعين، ينفي عن نفسه معرفة الغيب، فقد قال الله في كتابه: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[الأحقاف: ٩]. وقال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأعراف: ١٨٨].

وبهذا تظهر لنا أهمية الإيمان بالغيب ومكانته في الإسلام، فهو صفة المؤمنين المتقين، وكل من يدعي علماً بشيء من الغيب من تلقاء نفسه، يكون ضالاً ومكذباً لخبر الله عَزَّوَجَلَّ. ونصوص الكتاب والسنة تبين أن علم الغيب من خصائص المولى تبارك وتعالى، وهذا يبين لنا حكم الذين يزعمون أنهم يخبرون عما سيقع في المستقبل من حوادث، أو يزعمون علم ما في نفس الإنسان، وغير ذلك من كذب ودجل وشعوذة، مما نجد له صوراً في بعض الصحف والمجلات التي تحتوي على زاوية لقراءة حظ الإنسان،

أو معرفة ما يقع له في المستقبل خلال معرفة الأبراج والكواكب، من الكهان والمنجمين ومن على شاكلتهم.

تعريف مفاتح الغيب، وذكر أقسام الغيب:

مفاتح في اللغة: المِفتح بكسر الميم والمفتاح: مفتاح الباب وكل ما فتح به الشيء. قال الجوهري: وكل مستغلق، والجمع مفاتيح ومفاتح أيضاً[(١)].

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى (مَفَاتِحُ). قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مفاتح جمع مِفتَح، هذه اللغة الفصيحة. ويقال: مِفتاح ويجمع مفاتيح. وهي قراءة ابن السَّميفع: مفاتيح. والمفتح عبارة عن كل ما يحل غلقاً محسوساً كان كالقفل على البيت أو معقولاً كالنظر، وهو في الآية استعارة عن التوصل إلى الغيوب، كما يتوصل في الشاهد بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان، ولذلك قال بعضهم: هو مأخوذ من قول الناس: افتح علي كذا، أي أعطني أو علمني ما أتوصل إليه به، فالله – تعالى – عنده علم الغيب، وبيده الطرق الموصلة إليه، لا يملكها إلا هو، فمن شاء اطلاعه عليها أطلعه، ومن شاء حجبه عنها حجبه، ولا يكون ذلك من إفاضته إلا على رسله. وقيل المراد بالمفاتح: خزائن الرزق، عن السدي والحسن.

وقال مقاتل والضحاك: خزائن الأرض.

وهذا مجاز، عبر عنها بما يتوصل إليها به، وقيل غير هذا مما يتضمنه معنى الحديث، أي عنده الآجال ووقت انقضائها، وقيل: عواقب الأعمار،

---

(١) انظر لسان العرب / ابن منظور (١١/ ١٢٠) – ط: دار صادر (٢٠٠٣م).

وخواتم الأعمال، إلى غير هذا من الأقوال، والأول المختار»[١].

و ورد في معنى مفاتح الغيب سبعة أقوال:

«أحدها: أنها خمس لا يعلمها إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

روى البخاري من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله، لا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله....» الحديث.

والثاني: أنها خزائن غيب السماوات من الأقدار والأرزاق، قاله ابن عباس.

والثالث: ما غاب عن الخلق من الثواب والعقاب، وما تصير إليه الأمور، قاله عطاء.

والرابع: خزائن غيب العذاب متى ينزل، قاله مقاتل.

والخامس: الوصلة إلى علم الغيب إذا استعلم، قاله الزجاج.

و السادس : عواقب الأعمار وخواتيم الأعمال.

والسابع: ما لم يكن، هل يكون أم لا يكون؟ وما يكون كيف يكون، وما لا يكون إن كان كيف يكون؟»[٢].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن/ القرطبي (٧/ ١-٢) بتصرف.

(٢) زاد المسير في علم التفسير / لأبي الفرج جمال الدين ابن الجوزي (٣/ ٥٣-٥٤)، المكتب الاسلامي - ط٣ (١٤٠٤). وانظر معالم التنزيل / الحسين بن مسعود البغوي (٢/ ١٠٢)، ت: خالد العك ومروان سوار - دار المعرفة - بيروت، ط١ (١٤٠٦).

«وعبر عن هذه الأمور الخمسة بالمفاتيح؛ لتقريب الأمر على السامع، لأن كل شيء جعل بينك وبينه حجاب فقد غُيِّب عنك، والتوصل إلى معرفته في العادة من الباب، فإذا أغلق الباب احتيج الى المفتاح، فإذا كان الشيء الذي لا يطلع على الغيب إلا بتوصيله لا يُعرَفُ موضعُه، فكيف يعرف المغيَّب»[١] .

الغيب في اللغة:

هو كل ما غاب عنك. والغيب أيضاً ما غاب عن العيون سواء كان محصلاً في القلوب أم غير محصل[٢] .

ويعرف العلماء الغيب بأنه «هو ما غاب عن الحس وأدركه الانسان بتحليله الفكري أو بالخبر اليقيني عن الله ورسوله، أو أن يبقى سراً يعجز الانسان عن إدراكه ولا يعلمه إلا اللطيف الخبير»[٣] .

ويكتفي بعض العلماء بقولهم: هو ما غاب عن الحواس وعن علم الانسان[٤] .

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري / لأبي الفضل ابن حجر العسقلاني (٨/ ٥١٤)، ت: محب الدين الخطيب – المكتبة السلفية – ط٣ (١٤٠٧).

(٢) انظر لسان العرب، جمال الدين أبي الفضل محمد بن منظور (١/ ٦٥٤)، دار صادر، بيروت.

(٣) رحلة عبر الغيب، عبدالكريم عثمان (٢٣)، ط١ – دار السلام – حلب.

(٤) انظر مفردات غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (١٠٩٠)، ت: محمد كيلاني – مصطفى الحلبي – مصر. وانظر التفسير الكبير مفاتيح الغيب، لأبي عبدالله فخر الدين الرازي (٢/ ٢٧)، ط٢– دار الكتب العلمية بطهران.

وتطلق مفاتح الغيب على: الطرق والوسائل التي يتوصل بها للغيب أو على خزائن الغيب. ومفاتح الغيب جمع مضاف يعم كل المغيبات، أو هي علم الله بجميع الأمور الغيبية(١).

وقد خصص هذا العموم بعض المفسرين بخزائن الأقدار والأرزاق، أو الثواب والعقاب، أو عواقب الأعمار وخواتيم الأعمال(٢).

والصحيح أن العموم في مفاتح الغيب خصصها النبيﷺ بخمسة أشياء فقط، وقد أخبرنا- عليه الصلاة والسلام - عن عدد ومسمى مفاتح الغيب في صيغتين:

الصيغة الأولى: صيغة عموم وتشير إلى القضايا التي وردت في الآية من سورة لقمان، قال ﷺ -: «مفاتح الغيب خمس، ثم قرأ الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾[لقمان: ٣٤]»(٣).

الصيغة الثانية: من الخبر وفيها تخصيص قال ﷺ: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»(٤).

(١) انظر التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (٧/ ٢٧٠)، الدار التونسية للنشر، ط١ (١٩٨٤).

(٢) انظر زاد المسير / ابن الجوزي (٣/ ٦٠).

(٣) سبق تخريجه (٢).

(٤) سبق تخريجه (٢).

فصيغة الحديث الأول تماثل صيغة الحديث الثاني، في ثلاث قضايا هي: علم الساعة، وعدم دراية الأنفس لكسبها في المستقبل، ومكان موتها، وهذه الثلاث غيب لا يعلمه إلا الله باتفاق العلماء.

لكن الحديثين يختلفان في مسمى قضية إنزال المطر، وقضية ما في الأرحام، فالحديث الأول أشار إلى أن الصيغة العامة لهما هي مفتاح الغيب، في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾[لقمان: ٣٤].

وأما الحديث الثاني فقد أتى بصيغة أخرى تخصص العموم فسماهما الرسول ﷺ بألفاظ مخصوصة محددة فقال: «ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله».

وبالجمع بين الروايتين يصير غيض الأرحام، وزمن مجيء المطر، هما الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وبالتالي يصبح مراد الرسول ﷺ في اللفظ العام في آية سورة لقمان بناء على الحديث الأول، هو المعنى المحدد باللفظ الخاص في الحديث الثاني، ويكون غيض الأرحام هو أحد مفاتح الغيب الخمس، لا الذكورة ولا الأنوثة ولا العلم بصفات الجنين، ويكون أيضًا العلم بوقت نزول المطر الوارد في الحديث هو أحد مفاتح الغيب الخمس، لا مطلق إنزال الغيث الوارد في الآية الكريمة[1].

وهذا ما سيتضح عند بحث هاتين المسألتين.

---

(١) انظر مفاتح الغيب... وعلم ما في الأرحام د. عبدالجواد محمد الصاوي، موقع الهيئة العلمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة *http://www.eajaz.org*

أقسام الغيب:

ينقسم الغيب الى عدة أقسام باعتبارات مختلفة:

أ- باعتبار علمه ومعرفته ينقسم الى قسمين:

القسم الأول: غيب مطلق، وهو ما غاب عن جميع المخلوقين، وهذا النوع لا يعلمه أحد من المخلوقين لا نبي مرسل ولا ملك مقرب كعلم الساعة، وهذا النوع خاص بالله عَزَّوَجَلَّ وهو النوع الذي ذكره الله سبحانه في قوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[النمل: ٦٥].

القسم الثاني: غيب مقيد، وهو ما علمه بعض المخلوقين وشهدوه، من ملائكة أو جن أو إنس دون غيرهم، ويمكن أن نسميه (غيب نسبي)، فهذا غيب لمن غاب عنه، وأما من شهده فلا يعد عنده غيباً[(١)].

ب- باعتبار الزمان ينقسم الغيب الى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: غيب ماض، كالأحداث التاريخية الماضية التي لم نشهدها مما ورد في الكتاب والسنة.

القسم الثاني: غيب حاضر، كالأحداث التي تجري اليوم فيشهدها البعض وتكون لمن غاب عنها غيباً، وكتسجيل الملائكة لأعمال بني آدم وما شابه.

القسم الثالث: غيب مستقبلي مثل كسب الغد، ونزول الغيث، وعلم

---

(١) انظر مجموع الفتاوى، لأبي العباس تقي الدين ابن تيمية (١٦/ ١١٠)، دار المنار (١٤٠٨/ ١٩٨٨).

الساعة وما شابه[١].

ج- باعتبار وروده ينقسم الغيب الى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: غيب ورد في القرآن الكريم.

القسم الثاني: غيب ورد في السنة الصحيحة.

القسم الثالث: غيب ورد عن طريق الإسرائيليات والأخبار التي لا يعلم صدقها ولا كذبها[٢].

---

(١) انظر الايمان بالغيب، بسام سلامة (٣٣)، ط١ (١٤٠٣-١٩٨٣) - مكتبة المنار - الأردن.

(٢) انظر الإيمان بالغيب / لبسام سلامة (٣٤).

المبحث الأول

(لا يعلم ما في غد إلا الله)

علم كسب الغد: هو العلم بما يكسبه في مستقبله من خير وشر، وطاعة ومعصية، وكفر وإيمان، وفي آخرته من الثواب والعقاب[١] ، وهل هو شقي أم سعيد، وكذلك ما سيكسبه في الدنيا من رزق ومال، أو ما سيحدث له من حوادث، أو ما سيقع عليه من مصائب سواء له أو لغيره، كل ذلك في علم الله – سبحانه – فهذه الأنفس التي تملأ الأرض وتخضع لسنن الله في الكون، لا تعلم كسبها من الخير والشر، فمستقبل الكسب مجهول لها حتى في الزمن القريب ومحجوب عنها فلا يخضع لسنن مشهودة بل هو مما اختص الله عَزَّوَجَلَّ بعلمه.

قال الشعبي، عن مسروق، عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا، أنها قالت: «من حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٌ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]»[٢] .

هناك مسألة تتعلق بما يحدث في الغد وهي: العلم بوقت الكسوف والخسوف هل هي من الغيب أم لا؟

قال ابن العربي رَحِمَهُٱللَّهُ: «فأما من أخبر عن كسوف الشمس والقمر، فقد قال علماؤنا: يؤدب، ولا يسجن، ولا يكفر، أما عدم تكفيره فلأن جماعة قالوا: إنه أمر يدرك بالحساب وتقدير المنازل حسب ما أخبر الله سبحانه في

---

(١) انظر لباب التأويل في معاني التأويل / لعلاء الدين علي البغدادي الشهير بالخازن (٣/ ٢٢٠)، دار الفكر – بيروت – (١٣٩٩).

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم / ابن كثير (٦/ ٣٥٣).

قولــه: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾[يس: ٣٩] فلحسابهم وإخبارهم عنه، وصدقهم فيه، توقف علماؤنا عن الحكم بتكفيره، وأما أدبهم فإنهم يُدخلون الشك على العامة في تعليق العلم بالغيب المستأنف، ولا يدرون قدر الفرق بين هذا وغيره، فتشوش عقائدهم في الدين، وتتزلزل قواعدهم في اليقين، فأدبوا حتى يُسِرّوا ذلك إذا عرفوه ولا يعلنوا به»[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكما أن العادة التي أجراها الله تعالى أن الهلال لا يستهل إلا ليلة ثلاثين من الشهر أو ليلة إحدى وثلاثين وأن الشهر لا يكون إلا ثلاثين أو تسعة وعشرين، فمن ظن أن الشهر يكون أكثر من ذلك أو أقل فهو غالط ، فكذلك أجرى الله العادة أن الشمس لا تكسف إلا وقت الاستسرار، وأن القمر لا يخسف إلا وقت الإبدار، ووقت إبداره هي الليالي البيض التي يستحب صيام أيامها، ليلة الثالث عشر والرابع عشر، والخامس عشر فالقمر لا يخسف إلا في هذه الليالي، والهلال يستسر آخر الشهر، إما ليلة وإما ليلتين، كما يستسر ليلة تسع وعشرين وثلاثين، والشمس لا تكسف إلا وقت استسراره، وللشمس والقمر ليالٍ معتادة، من عرفها عرف الكسوف والخسوف، كما أن من علم كم مضى من الشهر يعلم أن الهلال يطلع في الليلة الفلانية أو التي قبلها، لكن العلم بالعادة في الهلال عام يشترك فيه جميع الناس، وأما العلم بالعادة في الكسوف والخسوف فإنما يعرفه حُسّاب جريانهما، وليس خبر الحاسب

---

(١) أحكام القرآن / لأبي بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي (٢/ ٢٦٠)، ت: علي البجاوي – دار الفكر – بيروت.

بذلك من باب علم الغيب ولا من باب ما يخبر به من الأحكام التي يكون كذبه فيها أعظم من صدقه، فإن ذلك قول بلا علم ثابت وبناء على غير أصل صحيح...، والعلم بوقت الكسوف والخسوف وإن كان ممكناً ولكن هذا المخبر المعين قد يكون عالماً بذلك وقد لا يكون، وقد يكون ثقة في خبره، وقد لا يكون، وخبر المجهول الذي لا يوثق بعلمه وصدقه، ولا يعرف كذبه موقوف، ولو أخبر مخبر بوقت الصلاة وهو مجهول لم يقبل خبره، لكن اذا تواطأ خبر أهل الحساب على ذلك، فلا يترتب على خبرهم علم شرعي»(١).

وما ذكره ابن العربي والقرطبي رَحِمَهُمَاٱللَّهُ من تأديب معلن ذلك فله وجه من التعليل، إذا كان إعلانه سيشوش ولن يقبله العامة، فإن الناس يخاطبون على قدر ما يفهمون، أما إن كان تأديبهم سيشوش على الناس ولن يقبلوه فترك تأديبهم أولى.

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٣٢٠-٣٢٢).

المبحث الثاني

(ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله)

أثار المغرضون الشكوك حول تفسير علم ما في الأرحام بعمومه على أنه أحد الغيوب الخمس التي لا يعلمها إلا الله، وقالوا لقد بات العلماء يعرفون ما في الأرحام من ذكورة الجنين أو أنوثته، والتشوهات الخلقية فيه، وهو في بطن أمه بأجهزة التصوير والتحاليل الدقيقة، فأثاروا البلبلة في أذهان الكثير من العوام، وهب بعض المجتهدين يدفعون الشبهة وينافحون عن تفسير النص القرآني، لكنهم لم يحرروا محل النزاع بدقة، ولم ينظروا إلى النصوص الواردة في الموضوع مجتمعة، فبقيت الشبهة حية في عقول البعض من الناس.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾[الرعد: ٨ - ٩] هذه الآية تجمع بين عموم ما في الأرحام، وعلم الله المحيط به، وبين علم غيض الأرحام الذي لا يعلمه إلا الله، فعلم الله لما تحمل كل أنثى، كعلم الله لما في الأرحام، من حيث دلالة (ما) الموصولة في كلتا الآيتين، فاللفظ فيهما عام شامل لكل ما يتعلق بعالم الغيب والشهادة في الحمل، وهذا المعنى العام المجمل، فُصّل بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾[الرعد: ٨] أي إن الله يعلم ما تغيض الأرحام وما تزداد؛ فالعلم المتعلق بغيض الأرحام هو من الغيب المقصور علمه على الله تعالى؛ استناداً للحديث. والعلم المتعلق بازدياد الأرحام بالأجنة؛ هو من عالم الشهادة؛ وعلم الله فيه علم إحاطة وشمول.

ويؤكد هذا قوله تعالى في الآية التالية: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ

﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾[الرعد: ٩]، إشارة إلى أن في الآية السابقة جزءًا من عالم الغيب وهو ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾[الرعد: ٨]، وجزءًا من عالم الشهادة؛ وهو علم الله المحيط الشامل لأحوال وصفات حمل كل أنثى على وجه البسيطة وما تزداد به الأرحام من هذا الحمل.

ولذلك اتفق علماء السلف على أن مفاتح الغيب الخمسة، لا يعلمها إلا الله، ولا يخضع أي منها في كلياتها وجزئياتها، للسنن الكونية في عالم الشهادة، وبالتالي لا يمكن لمخلوق أن يعلم أي شيء منها، اعتماداً على سنن الاستكشاف في عالم الكون المنظور.

وقد كان هذا الأمر واضحاً في كلام المفسرين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ حينما فسروا الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾[لقمان: ٣٤].

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالمراد بالغيب المنفي في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[النمل: ٦٥] هو المذكور في هذه الآية التي في لقمان»[١].

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود أنه قال: «أوتي نبيكم علم كل شيء سوى هذه الخمس»[٢].

وقال ابن عباس: «هذه الخمسة لا يعلمها إلا الله تعالى، ولا يعلمها ملك

---

(١) فتح الباري (٨/ ٥١٤).

(٢) المسند / لأبي عبدالله احمد بن حنبل الشيباني ح (٤١٥٦)، (١/ ٤٣٧)، ط٥ (١٤٠٥/ ١٩٨٥) - المكتب الاسلامي.

مقرب ولا نبي مرسل، فمن ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه فقد كفر بالقرآن، لأنه خالفه»[١].

وقال الطبري: «وعند الله علم ما غاب عنكم أيها الناس مما لا تعلمونه ولن تعلموه، مما استأثر بعلمه نفسه، ويعلم أيضاً مع ذلك جميع ما يعلمه جميعكم ولا يخفى عليه شيء»[٢].

وليتضح الأمر لا بدّ من معرفة معنى غيض الأرحام:

يطلق الغيض في اللغة على: النقص، والغور، والذهاب، والنضوب. وقد جاء في المعاجم اللغوية: «غاض الماء غيضاً ومغاضاً»: قل ونقص. أو غار فذهب. أو قل ونضب. أو نزل في الأرض وغاب فيها.

وغاضت الدّرّة: احتبس لبنها ونقص[٣]. «وغيض الماء ـ وما تغيض الأرحام» أي ما تفسده الأرحام فتجعله كالماء الذي تبتلعه الأرض[٤]. وقد دار تفسير العلماء لغيض الأرحام حول معنيين: الدم الذي ينزل على المرأة الحامل، والثاني: هو السقط الناقص للأجنة قبل تمام خلقها.[٥]

وقال الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ [الرعد: ٨]، أي: تنقص

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ٨٢).

(٢) جامع البيان (٨/ ١٠٩).

(٣) انظر المعجم الوسيط (٢/ ٦٦٨)، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية – القاهره، ط٣ (١٩٩٨).

(٤) انظر المفردات في غريب القرآن / للراغب الأصفهاني (٣٦٨).

(٥) قاله ابن عباس وقتادة والضحاك والحسن البصري، انظر جامع البيان، الطبري (٨/ ١١٢).

مما فيها، إما أن يهلك الحمل، أو يتضاءل، أو يضمحل»[١] وعرّف علماء اللغة أيضاً السقط بأنه: الجنين يسقط من بطن أمه قبل تمامه[٢] . وعرفوا الغيض بأنه السقط الذي لم يتم خلقه[٣] .

إذن يمكننا القول بأن السقط المفسر للغيض والمراد في كلام علماء اللغة والتفسير هو: الجنين الذي سقط من بطن أمه قبل اكتمال خلقه، أو هو الجنين الذي يهلك في الرحم؛ ويتحلل ويغور وتختفي آثاره منها، ويصدق عليه أن الرحم تبتلعه كما تبتلع الأرض الماء.

وهذا ما يحدث في علم الأجنة، فعندما تهلك الأجنة في الأسابيع الثمانية الأولى من عمرها، إما أن تسقط خارج الرحم، أو تتحلل وتختفي تماماً من داخله، ويسمي علماء الأجنة هذا الهلاك بصورتيه: الإسقاط التلقائي المبكر، وهو متوافق تماماً مع أقوال علماء اللغة والتفسير في تعريفهم للغيض.

فغيض الأرحام هو الإسقاط التلقائي المبكر، وهو الذي يحدث خلال الأسابيع الثمانية الأولى من الحمل، وهو ظاهرة شائعة، ونسبة حدوثه كبيرة، إذ تصل إلى حوالي ٦٠٪، في الأسابيع الثمانية الأولى من الحمل. وفي عدة مشاهدات للسقط المبكر لم يكن الجنين موجوداً؛ أي أن الجنين

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/ للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (٤/ ٩٣)، ت: محمد النجار، الإدارة العامة للطبع والترجمة بالرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية (١٤١٠).

(٢) انظر المعجم الوسيط (٤٣٦).

(٣) انظر تاج العروس (٥/ ٦٤)، والمعجم الوسيط (٢/ ٦٦٨).

قد تحلل واختفى داخل الرحم. وعدم رؤية جنين بالمرة في حويصلة الحمل، يسمى كيس الحمل الفارغ، وتمثل هذه الحالات حوالي نصف حالات السقط التلقائي المبكر، وبعد اكتشاف جهاز الأشعة فوق الصوتية واستخدامه في تشخيص الحمل ومتابعته؛ تأكدت حالات غور الأجنة واختفائها من داخل الأرحام.

ويشيع هذا في حالات ظاهرة التوائم المتلاشية، وأكدت عدة دراسات حديثة شيوع هذه الظاهرة إذ بلغت نسبتها حوالي ٥٠٪ من حمل التوائم. ويقول أحد المراجع الطبية: يغور وينضب ويختفي أحد التوأمين تماماً من داخل الرحم في الفترة المبكرة من الحمل. وقد شخصت هذه الحالات بجهاز الأشعة فوق الصوتية، فبعد رؤية جنينين في الرحم بهذا الجهاز، أصبح لا يرى إلا جنين واحد منفرد، وبجواره كيس صغير يحتوي على مادة كثيفة تدل على موت جنين سابق. وفي خلال ٤ ـ ٦ أسابيع يمكن أن يختفي هذا الكيس تماماً، ويزول معه الدليل على وجود حمل لجنين سابق آخر. كما يمكن أن يشخص حمل عديد الأجنة ـ بأكياس حمل وأجنة حية ـ ثم عند الوضع لا يولد إلا جنين واحد تام مكتمل. أما بقية الأجنة فقد غارت وابتلعتها الأرحام. وقد لا يسقط محصول الحمل بعد موت الجنين تلقائيًّا، بل يبقى لفترة طويلة داخل الرحم ويسمى الإجهاض المخفي.

فالعلم بغيض الأرحام يعني العلم المسبق بحدوث الإسقاط التلقائي المبكر قبل تمام تخليق الجنين برغم توفر مقدمات الخلق الضرورية ومادته الأولى، وتهيؤ الأسباب وانتفاء الموانع لحدوثه، فيتخلص الرحم من تلك المواد الأولية؛ إما بإسقاطها أو بغورها واندثارها؛ وعلى هذا يكون المراد

بعلم غيض الأرحام الذي لا يعلمه إلا الله هو العلم بمستقبل هلاك الأجنة المبكرة، أو بمعنى آخر: العلم بإرادة الله في إنشاء إنسان جديد من عدمه. وأن هذا العلم مقصور على الله وحده، ويستحيل على البشر بل وعلى الخلق جميعاً معرفته.

وبناء على هذا وعلى ما سبق من تقريرات النصوص الشرعية فإنه يستحيل على العلماء الآن وفي المستقبل، معرفة مصير أي طور من أطوار الجنين، قبل اكتمال تخليقه ونفخ الروح فيه، هل سيتخلق إلى الطور الذي يليه أم يهلك، وتغيض به الأرحام؟ وذلك لأن معرفة هذا المستقبل والمصير لا يخضع لسنن الخلق المعروفة، وعلمه عند الله وحده، قد اختص به.[(١)] .

ومنهم من فسر «﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾[الرعد: ٨]» بتفسير آخر فقال: «عندما يُصَب المني في المجاري التناسلية للمرأة ينقبض الرحم ويغور للداخل بسبب مادة منوية تسمى بروستاجلاندين(***Prostaglandin***) ويعينها تقلص لا إرادي يقع للمرأة في أثناء الجماع (***Orgasm***)، وبهذا يعمل الرحم عمل المضخة (***pumpaction***) بطريقة تماثل عمل شفاطة لبن الثدي المطاطية التي تنقبض لتدفع الهواء، ومع الانبساط يقل الضغط داخلها فتشفط اللبن، وبالمثل ينبسط الرحم لاحقاً فيعين الحيوانات المنوية على بلوغ البويضة قرب نهاية قناة الرحم، ولذا لا يقل دوره هذا أهمية عن دوره في حفظ الحمل على طول مراحله، حيث يزداد حجماً بما يتناسب ومتطلبات الجنين،

---

(١) انظر مفاتح الغيب... وعلم ما في الأرحام، د. عبدالجواد محمد الصاوي، موقع الهيئة العلمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة *http://www.eajaz.org*.

وتحمل البويضة نصف عدد الفتائل الوراثية (الكروموزومات)، ويحمل الحوين النصف الآخر، وتتسابق الحيوانات المنوية وتعلو في المجاري التناسلية للمرأة ليحقق الفوز في بلوغ البويضة وإخصابها إما حيوان يحمل شارة الذكورة كروموزوم بهيئة (Y) فيكون الجنين المرتقب ذكراً - بإذن الله - وإما حيوان يحمل شارة الأنوثة كروموزوم بهيئة (X) فيكون الجنين أنثى بإذن الله، والبويضة الملقحة (***Zygot***) تكون نطفة، لكنها تعرض لمن يمكنه القراءة كتاباً بمشروع الجنين، وقبل تلقيح البويضة وتشكُّلِ الخريطة الوراثية وتخلُّقِ الجنين لا يمكن الحديث طبيًّا عن جنسه أو صفاته الجسدية، وبتلقيحها تتضاعف الفتائل الوراثية، وبالانقسام تتزايد الخلايا، وبنمو الجنين يزداد الرحم، ولذا يعتبر الحمل كله وجوهاً من الازدياد.

وفي قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴾[الرعد: ٨-٩]، أكدت الآية الكريمة قصر العلم التفصيلي المسبق بكل مقدر الحدوث قبل وقوعه على الله تعالى وحده، لكنها جمعت لله تعالى وحده ما هو بالنسبة للبشر غيب لم يقع بعد، فضلاً عما هو شهادة متحقق الحدوث، وراعت ترتيب علم الله تعالى بالغيب بالنسبة للبشر؛ ليناظر غيض الأرحام وترتيب العلم بالشهادة = زيادتها، ويعرف هذا الأسلوب عند البلاغيين باسم «اللف والنشر»، ويعني أن الأرحام تغيض قبيل تخلّق الجنين وازديادها، وبالفعل ينقبض الرحم ويغور للداخل قبل وقوع الإخصاب، وتشكل الخريطة الوراثية، ولا يمكن لأحد حينئذ سوى الله تعالى وحده العلمُ بخصائص الجنين أو ذكورته وأنوثته.

وفعل (تَغِيضُ) منسوب ابتداء في الآية الكريمة إلى (الأرْحَام) وفي مقابله الازدياد، يفيد في اللغة الغور والنقصان، كما ورد ذلك في القرآن؛ يقول تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ ﴾[هود: ٤٤]، ويقول تعالى: ﴿ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴾[الكهف: ٤١]، ويقول تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ﴾ [الملك: ٣٠].

وفي لسان العرب: «غاض الماء يغيض غيضاً.. نقص أو غار»[١] .

والخلاصة أن الله تعالى يعلم بمستقبل ومصير الإنسان المقبل الذي لم يتخلق بعد حال غيض الأرحام تماماً كما هو حال زيادتها بعد تخلقه[٢] .

والراجح – والله اعلم – هو القول الثاني في معنى ﴿تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾[الرعد: ٨]؛ لأن ما يسقط من الرحم لا ينشأ منه جنين، ومفاتح الغيب متعلقة بالإنسان الذي سيُخلق، يقول فضيلة الشيخ عبد المجيد الزنداني: «وإذًا هناك نصوص قد بينت بجلاء أن الأمر المحجوب عن علم غير الله إنما هو في مرحلة ما قبل تكون الجنين، فعلمنا أن الأرحام قبل أن تزداد حتى يراها كل المحيطين بالحامل تعاني من حالة تقلص وانكماش وغور ونقصان، وفي تلك الفترة حال الجنين المرتقب محجوب عن علم غير الله تعالى..، (فهو) مفتاح من مفاتيح الغيب يفتح على أبواب مغلقة، ولا يملكه دون الخالق

---

(١) لسان العرب / ابن منظور (٧/ ٢٠١).

(٢) انظر لا يعلم ما تغيض الأرحام الا الله / د.محمد دودح، الباحث العلمي في الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القران والسنة برابطة العالم الإسلامي مكة المكرمة، بتاريخ ٢٧/ ٦/ ٢٠١٠، موقع الاعجاز العلمي في القرآن والسنة *http://quran-m.com.*

سبحانه أحد.. وأما حمل الغيض على دم الحيض (أو السقط) فلا يتفق مع كونه مفتاحـًا للغيب لأنه لن ينشأ منه جنين، وبإجماع علماء المسلمين مفتاح الغيب متعلق بالإنسان الذي سيخلق، وقد تقرر في علم الله تعالى أن له مستقبلاً مغيّبـًا، وليس دم الحيض (أو السقط) كذلك.

وفي مرحلة الغيض يستحيل على إنسان أن يعرف صفات الجنين المقبل.. ولو جئت بصفين؛ وقلت: أنا سأصنع من هذه الأحجار بناء هل سيعلم أحد السامعين يقينـًا أيكون من الصفين مدرسة أم مستشفى؟ فيلا أم عمارة؟ هكذا الجنين في مرحلة الغيض لا يعلم أحد -غير الله تعالى- بما سيكون عليه حاله»[١].

ومع ذلك نجد أن هناك من العلماء المعاصرين من تكلم في أن الأطباء باستطاعتهم أن يعلموا ما في الأرحام أذكر أم انثى قبل نفخ الروح فيه؟ أي من حين يحصل تلقيح البويضة، ومنهم الاستاذ محمد رشيد رضا حيث يقول: «وما قد يستشكله في هذا المقام من لم يقف على حقيقة علم الغيب ما اكتشفه بعض الأطباء من سنة الله - تعالى- في سبب الذكورة والأنوثة في الحمل، وملخصه أن البويضة التي يحصل الحمل بتلقيحها في الرحم بماء الذكر منها ما يخلقه الله -تعالى - في جانب الرحم الأيمن، ومنه يتكون الذكور، ومنها ما يخلقه في جانب الرحم الأيسر ومنه يولد الإناث، وأن هذه البويضة توجد بالتناوب في أثناء حيض المرأة، فحيضة تنتهي بخلق بويضة الذكور في الجانب الأيمن فإذا حصل التلقيح عقبها كان الجنين أنثى، فمعرفة نوع الحمل في

---

(١) المرجع السابق.

الرحم بهذه الطريقة يعد من العلوم البشرية الكسبية، وهو لا يتعارض مع أن ما في الأرحام حقيقة لا يعلمها إلا الله، إذ معنى الحصر أن ما سيحدث في عالم الحيوان من التكوين في المستقبل هو من خزائن الغيب التي لا يحيط بما فيها إلا الله، ومفاتح العلم بأي شيء منها عنده، فإذا هدى عباده إلى سننه التي هي مفتاح موصل إلى الاطلاع على بعض ما تحويه هذه الخزانة فذلك لا ينافي ما ذكر، ومع ما سبق فإن العلم بالذكورة والأنوثة ليس علماً قطعياً بالرغم من الشروط التي اشترطوها، وإنما هو الظن الغالب»[١] .

ويقول الاستاذ محمد سعيد رمضان البوطي، وهومن المجيزين أيضاً: «ولعلك قد سمعت بأن بعض الأطباء في الغرب يأمل في اقتراب اليوم الذي يتمكن فيه الطب أن يعلم منذ اليوم الأول لظهور الحمل نوع الجنين أذكر هو أم انثى؟ وإننا نقول إن هذا ممكن، وإنما سبيله تتبع القرائن والأسباب التي جعلها الله شرطاً لذكورة الجنين ولأنوثته، وهي قرائن لم يستأثر الله بعلمها، بل ندب الناس إلى التنبه إليها، ولكن هل ترقى معرفة ذلك إلى اليقين الجازم بأن الجنين سيكون ذكراً أو إلى القدرة على التحكم بنوع الجنين؟ لا، لا يمكن أن ترقى هذه المعرفة إلى اليقين الحتمي، ولا إلى أن نحكم بالنوع، لأنه الإله الذي أقام ذكورة الجنين على الأسباب التي شاءها قادر على أن يبطل سببيتها في الوقت الذي يشاء، لا جرم أن الأمر يقف إذن عند حدود الظن الراجح وحده»[٢] .

---

(١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا (٧/ ٤٦٤)، دار المعرفة – بيروت.

(٢) الايمان بالغيب، بسام سلامة (٢٦٨-٢٦٩).

والصواب التفصيل في المسألة وأن فيها حالتين:

الحالة الأولى: وهي ما ذكر من أن الأطباء في استطاعتهم أن يحددوا نوع الجنين أذكر أم أنثى قبل نفخ الروح فيه، فهذا لا يصح؛ لأن ما ذكروه مبني على غلبة الظن، وقد نهينا عن اتباع الظن، كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[النجم: ٢٣].

كما أن ما ذكروه من أن ذلك ليس من علم الغيب، وأن ما في الآية لا ينافيه = مردود؛ وذلك أن الأحاديث من سنة النبي ﷺ دلت على أنه من علم الغيب مادامت الروح لم تنفخ فيه.

الحالة الثانية: أن يكون المراد بعلم ما في الأرحام العلم بها بعد النفخ فيها، فهذا عموم الآية يدل على المنع منه، لكن جاء في السنة ما يخصص هذا العموم[1].

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: حدثنا رسول الله ﷺ: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومــًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكــًا فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع، فيسبق عليه كتابه، فيعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه

---

(١) القول في علم النجوم / ابي بكر علي بن أحمد المعروف بالخطيب البغدادي (٩٧)، ت: د. يوسف السعيد، ط١ (١٤٢٠/ ١٩٩٩) - دار أطلس - الرياض.

الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة»[١].

فالعلم بالجنين لا يمكن معرفته قبل نفخ الروح فيه، وهو بعد نفخ الروح فيه لا يعد من الأمور الغيبية؛ لأن الملائكة تعلم ذلك، فإن ملك الرحم يكتب عمله ورزقه وأجله وشقياً أو سعيداً، فيخبر الله – تعالى – الملك فلا يُعدّ إذاً من المغيبات.

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله تعالى –: «وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى أو شقياً أو سعيداً علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه»[٢].

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا يسأل الملك الموكل بالأرحام ربه: هل هو ذكر أم انثى؟ فيقضي الله ما يشاء»[٣].

وقد سئل فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن التوفيق بين علم الأطباء الآن بذكورة الجنين وأنوثته وقوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾[لقمان: ٣٤].

فقال: – بعد أن بين أنه لا يمكن أن يتعارض صريح القرآن مع الواقع أبداً – «إذا تبين ذلك، فقد قيل: إنهم الآن توصلوا بواسطة الآلات الدقيقة للكشف عما في الأرحام، والعلم بكونه أنثى أو ذكراً، فإن كان ما قيل باطلاً فلا كلام، وإن كان صادقاً فإنه لا يعارض الآية، حيث إن الآية تدل على أمر غيبي هو متعلق علم الله – تعالى – في هذه الأمور الخمسة، والأمور الغيبية

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ح (٣٢٠٨)، (٤/ ١١١).

(٢) تفسير القران العظيم (٣/ ٤٥٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦/ ١٧٤).

في حـال الجنـين هـي: مقـدار مدتـه في بطـن أمـه، وحياتـه وعملـه ورزقـه، وشقاوته أو سعادته، وكونـه ذكـراً أم أنثى قبـل أن يخلـق، أما بعـد أن يخلـق فليس العلم بذكورته أو أنوثته من علـم الغيـب؛ لأنـه بتخليقـه صـار مـن علـم الشهادة، إلا أنه مستتر في الظلمات الثلاث التي لـو أزيلـت لتبين أمره، ولا يبعـد أن يكـون في خلـق الله – تعـالى – مـن الأشـعة أشـعة قويـة تخـترق هـذه الظلمات حتى يتبين الجنين ذكراً أم أنثى»[١].

فتبين بهذا أن الكشف عن ذلك بعد نفخ الروح ليس من علم الغيب، والله أعلم.

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (٣/ ٧٦-٧٩) رقم الفتوى (٣٦٢)، جمع وترتيب فهد بن ناصر السليمان.

المبحث الثالث

(ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله)

المطر من الرزق، والرزق لا يهبه إلا الله، وقد يكون – أحيانـًا – من صور العذاب، ولا ينزل العذاب إلا الله، ولأن نزول المطر عملية معقدة للغاية، يدخل في تحقيقها من العوامل ما لا يمكن لمخلوق أن يتحكم فيها، ويتم بواسطة العديد من التفاعلات الطبيعية والكيميائية غير المعروفة بالكامل، من بينها تصريف الرياح، وتبخير الماء من الأوساط المائية، وتجميع بخار الماء المنطلق من جميع الأنشطة الحياتية، ونقله بواسطة الرياح التي تثير السحاب، وتؤلف بينه وتبسطه في السماء، أو تركمه إلى أعلى نطاق الرجع من الغلاف الغازي، وتستمر في تلقيحه بمزيد من بخار الماء الذى يثريه، وبذرات الغبار التي تعمل كنوى للتكثيف في داخله فتعمل على نمو قطرات الماء حتى تصل إلى الحجم المناسب لهطول المطر أو البرد أو الثلج، كل ذلك والسحاب في حركة دائبة فلا يعلم أين ينزل مطره، ولا كم المطر النازل، ولا متى ينزل هذا المطر إلا الله.

ومن العوامل المتحكمة في هذه العملية المعقدة، عدد ونوع الشحنات الكهربائية في السحابة الواحدة وفي السحب المتصادمة، وأثر الرياح الشمسية على أجواء الأرض، وغير ذلك من العوامل المعروفة وغير المعروفة لنا، أضف إلى ذلك أن السحب لا تحمل في أي وقت من الأوقات أكثر من ٢٪ من بخار الماء الموجود في الغلاف الغازي للأرض، والمقدر بحوالي ١٥٠٠٠ كيلو متراً مكعباً، ويوجد الماء فيها على هيئة قطرات متناهية الضآلة

في الحجم لا تكاد تتعدى الواحد من الف من المليمتر في اطوال اقطارها، وتلتصق هذه القطيرات الدقيقة بجزيئات الهواء للزوجتها العالية، ولذلك فهي لا تسقط مطراً إلا إذا تم تلقيحها بمزيد من بخار الماء أو بالعوالق الترابية التي تثيرها الرياح من فوق سطح الأرض فتعين على إنزال الماء منها بإذن الله، وقد يتم ذلك بامتزاج السحب (أي التأليف بينها) مع اختلافها في درجات الحرارة، والرطوبة، والشحنات الكهربائية وغيرها من الصفات.

ومن ذلك يتضح أن إنزال المطر هو في حقيقته سر من أسرار الكون لا يعلمه ولا يرتبه إلا الله، وإن جاهد العلماء جهاداً مضنياً في محاولة فهم كيفية تكوّن ونزول المطر من السحب المختلفة المحملة ببخار الماء وقطيراته، وهي عملية خارجة تماماً عن طاقة القدرة الإنسانية مهما تطورت معارف الإنسان، وارتقت تقنياته، ويؤكد ذلك أن كل محاولات استمطار السحاب برشه بعدد من المركبات الكيميائية التي لها قابلية شديدة للماء مع حدوث ذلك = باءت بالفشل؛ فإنهم لم يستطيعوا التحكم في وقت إمطارها، تأكيداً لهذه الحقيقة التي عبر عنها رسول الله ﷺ بقوله: «ولا يعلم متي يأتي المطر أحد إلا الله...»[(١)].

الأرصاد:

لا شك أن كثيراً مما يخبر به أهل الأرصاد مبني على الظن والتخمين، وأنه يستحيل توقع نزول المطر إلا بعد أن يسوق الله السحاب ويركمه، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ

---

(١) انظر ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله / د. زغلول النجار، من موقع الإعجاز العلمي في السنة http://www.alsiraj.net/egaz/html/page17.htm.

وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾[النور: ٤٣].

وهذا لا يعد من علم الغيب، وذلك أن توقع قرب نزوله إنما يعرف بالتجارب والمقاييس، وهي أمور ظاهرة، وليست خفيه، فالتجارب دلت – مثلاً– على أن السحب الركامية تكون غالبًا ممطرة، وأن السحب العالية الخفيفة لا تكون ممطرة، وهكذا فهي توقعات مبنية على مقدمات مستفادة من مراصد الأحوال الجوية التي تتأثر بالرطوبة واليبوسة ونحو ذلك، ولهذا كثيراً ما يكون الأمر على خلاف ما قالوا(١).

وأما إنشاء السحب، وإنزال المطر في أرض كتب الله عليها الجفاف، أو منع السحاب والمطر عن أرض كتب الله لها الحياة والخضرة، فهذا لا يمكن لأحد، كما أن العلم بوقته تحديداً ومدة نزوله ونفعه وموقع كل قطرة منه، فهذا لا يعلمه إلا لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ(٢).

فما تعلنه مراكز الأرصاد الجوية من التوقعات ليس ادعاء لعلم الغيب، لأنه قد يتوقع نزول المطر ثم لا ينزل منه قطرة واحدة، وهذا مشاهد ومجرب، ولذلك وجب على من يخبر بنزول المطر بناء على تلك التوقعات أن يقرن قوله بالمشيئة كأن يقول: يتوقع نزول المطر غداً إن شاء الله، ولا يصح الجزم بذلك.

---

(١) انظر شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري / عبدالله الغنيمان (١/ ١١٢)، مكتبة لينا بدمنهور، ط١ (١٤٠٩).

(٢) انظر الايمان بالغيب / بسام سلامه (٢٦٤– ٢٦٥).

وقد جاء في كتاب الله تعالى ما يدل على جواز توقع حالة الجو، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[الأعراف: ٥٧].

وقال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾[الفرقان: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[الروم: ٤٦].

فهذه الآيات دلت على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن الذي تحصل له البشرى بالمطر يكون عالماً بأنواع الرياح، فليس كل نوع منها يكون مبشراً بالمطر.

الوجه الثاني: أن فيه جواز توقع هطول المطر قبل نزوله إذا ظهرت علامات ذلك.

الوجه الثالث: أن الله تعالى جعل هذا النوع من الرياح علامة على المطر، وأرشدنا إلى ذلك[1]. وأيضاً، فإن الله – تعالى – إذا أمر به لم يكن بعد ذلك من علم الغيب.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ «وكذلك إنزال الغيث، لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر

---

(١) انظر التنجيم والمنجمون / عبدالمجيد المشعبي (٣١٤-٣١٥)، مكتبة الصديق بالطائف، ط١(١٤١٤).

به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن يشاء الله من خلقه»[(١)].

وقد وهم من زعم بأن اختصاص الله في الغيب، إنما هو اختصاص القدرة، واستدل بآية لقمان، وزعم أن من ادعى أن العلم به من الغيبيات فقد وهم[(٢)].

وهذا خطأ محض؛ لأن «قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾[لقمان: ٣٤] نزلت في الحارث بن عمرو بن حارثة ابن محارب بن حفصة من أهل البادية أتى النبي ﷺ فسأله عن الساعة ووقتها، وقال: إن أرضنا أجدبت، فمتى ينزل الغيث، وتركت امرأتي حبلى فماذا تلد؟ وقد علمتُ أين ولدتُ، فبأي أرض أموت؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية»[(٣)].

فسؤال الحارث بن عمرو للنبي – عليه الصلاة والسلام –: متى الغيث؟ ولم يكن سؤاله: من خلق الغيث؟ فهو سؤال عن وقته، وقد جاءت هذه الآية لتبين اختصاص الله – تعالى – بالغيث قدرة وعلماً، فالأسباب الكونية الله خلقها، والعلم بنزوله الله أعلم به.

كما أن حديث ابن عمر، وحديث سالم بن عبدالله اللذين سبق ذكرهما نصان لا يحتملان التأويل، في كون الله تعالى مختصاً بعلم ذلك، والله أعلم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٥٤).

(٢) انظر في ظلال القرآن / سيد قطب (٥/ ٢٧٩٨-٢٧٩٩)، دار الشروق.

(٣) بحثت عن الحديث فلم اجده في كتب السنة، انظر اسباب النزول / علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (١٩٩) ت: كمال زغلول، دار الكتب العلمية (١٤١١-١٩٩١)، وانظر معالم التنزيل (تفسير البغوي) / للحسين بن مسعود البغوي (٣/ ٤٩٦)، ت: خالد العك، دار المعرفة – بيروت، ط١(١٤٠٦).

المبحث الرابع

(ولا تدري نفس بأي أرض تموت)

قال الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدّثنا أحمدُ بن منيعٍ، وعليُّ بن حُجرٍ، المعنى واحدٌ، قالا: حدّثنا إسمعيلُ بن إبراهيم، عن أيُّوب، عن أبي المَلِيح بن أُسامة، عن أبي عَزَّةَ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إذا قضى اللّهُ لعبدٍ أن يمُوت بأرضٍ جعل لهُ إليها حاجةً، أو قال: بها حاجةً».

قال أبُو عيسى: هذا حديثٌ صحيحٌ، وأبُو عزّة لهُ صُحبةٌ واسمهُ يَسارُ بن عَبدٍ، وأبو المَليح اسمهُ عامرُ بن أُسامة بن عُمَيرٍ الهُذَليُّ ويقال: زيدُ بن أُسامة[1].

يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[لقمان: ٣٤]، ولا يدري الإنسان بأي أرض يموت؟ هل يموت بأرضه، أو بأرض بعيدة عنها، أو قريبة منها، أو يموت في البحر، أو يموت في الجو؟ لا يدري، ولا يعلم ذلك إلا الله.

فإذا كنت لا تدري بأي أرض تموت، وأنت يمكنك أن تذهب يميناً وشمالاً، فكذلك لا تعلم متى تموت، لا تدري في أي وقت تموت، هل ستموت في الصباح، في المساء، في الليل، في وسط النهار؛ لا تدري، في الشهر القريب، في الشهر البعيد لا تدري، لا تدري متى تموت ولا بأي أرض تموت.

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي / محمد بن عبدالرحمن المباركفوري ح (٢١٤٧)، دار الكتب العلمية – بيروت.

فإذا كنت كذلك؛ فاقصر الأمل، لا تمد الأمل طويلاً، لا تقل أنا شاب وسوف أبقى زمانـاً طويلاً فكم من شابٍّ مات في شبابه، وكم من شيخ عُمِّر، ولا تقل إني صحيح البدن والموت بعيد، فكم من إنسان مرض بمرض يهلكه بسرعة، وكم من إنسان حصل عليه حادث، وكم من إنسان مات بغتة، لذلك لا ينبغي للإنسان أن يطيل الأمل؛ بل عليه أن يعمل، وللدنيا عملها، وللآخرة عملها، فيسعى للآخرة سعيها بإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ واتّكال عليه.

وقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[الأعراف: ٣٤] إذا جاء أجل الإنسان لا يمكن أن يتأخر ولا دقيقة واحدة ولا يمكن أن يتقدم؛ بل هو بأجل معدود محدود، لا يتقدم عليه ولا يتأخر، فلماذا تجعل الأمل طويلاً؟

فالإنسان لا يعلم متى يموت، ولا يعلم بأي أرض يموت»[1].

(١) شرح رياض الصالحين / الشيخ محمد بن صالح العثيمين (١/ ٦٠٣)، مدار الوطن للنشر (١٤٢٦).

المبحث الخامس

(ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله)

علم الساعة من الأمور الغيبية التي لم يطلع اللهُ – تعالى – أحداً على وقتها، وقد أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يكل علم الساعة إليه، وذلك لأن كثيراً من الناس كانوا يسألون النبي عنها، فأمره الله – تعالى – بذلك.

قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾[الأحزاب: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾[النازعات: ٤٢ – ٤٤].

لكن رسولنا الكريم أخبرنا عن أماراتها الدالة على قربها، حتى يكون الناس منها على حذر، وذلك مثل ما جاء في حديث جبريل – عليه السلام – قال: «متى الساعة؟ قال ﷺ: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها، إذا ولدت المرأة ربتها فذاك من أشراطها، واذا كان الحفاة العراة رؤوسَ الناس، فذاك من أشراطها، في خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾[لقمان: ٣٤] ثم انصرف الرجل، فقال: ردوا علي، فأخذوا ليردوا فلم يروا شيئًا، فقال: هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم»[(١)].

---

(١) سبق تخريجه.

فالنبي ﷺ أخبر بشيء من أماراتها، لكن كان إذا سئل عن وقت وقوعها، كان جوابه: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، حيث إنه لا يعلم من ذلك شيئًا.

فمن ادعى علم الساعة، ومتى تكون، أو حددها بوقت وزمن معين، فهو كافر؛ لأنه خالف دلالات الكتاب والسنة الصريحة المعلومة من الدين بالضرورة.

وقد ظهرت في هذه الأزمنة ادعاءات بأن الساعة ستكون يوم كذا وكذا بتاريخ كذا وكذا، ويعلنها من لا دين له للناس وينشرها تضليلاً وتلبيسًا على العقول، وتغريراً بالضعفاء والسفهاء، وهذا كله كفر بالله العظيم. إن من يدعي أنه يعلم متى تقوم الساعة أو يحدد تاريخًا لنهاية العالم كما وقع في زماننا هذا، فهو كافر كفراً أكبرَ مخرِجًا من الملة؛ لأنه مخالف لنصوص الكتاب والسنة، مكذب لله ولرسوله ﷺ.

ومعلوم من الدين بالضرورة أن علم الغيب من خصائص الله وحده – كما سبق بيان ذلك– ولقد شاء الله تعالى أن يجعل علم الساعة غيبًا من جملة علم الغيب الذي استأثر بعلمه، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه؛ لا نبيًا مرسلاً، ولا ملكًا مقربًا، وذلك ليبقى الناس من الساعة على حذر دائم، وتوقع مستمر واستعداد كامل لاتخاذ الزاد المناسب لها، فهي الموعد المرتقب للجزاء الكامل، والإيمان بأشراط الساعة جزء من الإيمان باليوم الآخر الذي هو ركن من أركان الإيمان، والإيمان بذلك من مقتضيات الإيمان باليوم الآخر.

قال تعالى في كتابه المبين: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ

﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[هود: ١٢٣]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[النحل: ٧٧]، وقال جل ذكره: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام: ٥٩]، وأمر نبيه ﷺ أن يُعلن للملأ في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[سبأ: ٤٨]، وقوله ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[النمل: ٦٥] وقوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾[الجن: ٢٦].

فبين الله تعالى في هذه الآيات الكريمة أن غيب السموات والأرض لله تعالى وحده لا يُشركه فيه غيره، ولا يُظهر سبحانه أحداً على هذا الغيب إلا من ارتضاه من الرسل الكرام. وكل علم يتعلق بالمستقبل فإنه من علم الغيب، ومن ذلك علم قيام الساعة، فإنه من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ولم يُطلع الله عليه أحداً من خلقه، حتى أشرف الرسل من الملائكة والبشر لا يعلمونه، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح أن جبريل أتى إلى النبي ﷺ في صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه أحد من الصحابة، فسأل النبيَّ ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، فبيّنها له، ثم قال: «أخبرني عن الساعة»، فقال له النبي ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، قال: «فاخبرني عن أماراتها؟» فأخبره بشيء منها، فقوله ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»[1]، يعني أن

---

(١) سبق تخريجه.

علمي وعلمك فيها سواء، فلستُ أعلم بها منك حتى أخبرك، فإذا كنت لا تعلمها فأنا لا أعلمها، فإذا انتفى علمها عن أفضل الرسل من الملائكة وأفضل الرسل من البشر فانتفاء علمها عمن سواهما أولى.

وقد جاءت نصوص الكتاب والسنة بنفي علم الخلق بوقت الساعة بخصوصه.

فالآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ١٨٧].

أي لا يعلمون أن علمها عند الله تعالى، فهم يسألون عنها، وقد أكد الله تعالى أن علمها عنده وحده في جمل أربع، وهي قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ ، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ ، هذه الجمل أفادت اختصاص علمها بالله عَزَّوَجَلَّ بدلالة الحصر التي هي من أقوى دلالات الاختصاص.

أما الجملة الرابعة فهي قوله: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، فإن الناس لو أمكنهم العلم بها ما جاءتهم بغتة، لأن المباغتة لا تكون في الشيء المعلوم، فإن قال قائل: ألا يحتمل أن يكون في قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ، دليل على أن بعض الناس يعلمون متى تقوم؟

قلنا: لا يحتمل ذلك لأنه ينافي التأكيد الوارد في هذه الجمل ويناقضه، فكيف يؤكد الله تعالى أن علمها عنده وحده ثم يشير إلى أن بعض الناس يعلمون ذلك !! وهل هذا إلا من العبث المعنوي الذي يُنزَّه الله تعالى عنه، ومن الركاكة والعي الذي تأباه بلاغة القرآن العظيم.

ولو قُدّر -على الفرض الممتنع- أن أحداً من الناس قد يُعلمه الله تعالى به، فإن ذلك من علم الغيب الذي لا يُظهر الله تعالى عليه إلا من ارتضى من رسول، وقد سبق أن الرسول البشري محمداً ﷺ والرسول الملكي جبريل لا يعلمان ذلك، فمن ذا يمكن أن يعلمه من سواهما من الخلق؟!!

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾[لقمان: ٣٤]، وهذه الخمس هي مفاتح الغيب التي قال الله عنها: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[الأنعام: ٥٩]، كما فسرها به أعلم الخلق بمراد الله عَزَّوَجَلَّ رسول الله ﷺ، ففي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: مفاتح الغيب خمس ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾[لقمان: ٣٤][1]، فثبت بذلك أن علم الساعة مما يختص الله تعالى به؛ لأنه من علم الغيب ولا يظهر الله تعالى أحداً من خلقه على غيبه إلا من ارتضاه من الرسل، فمن ادعى علم شيء منه غير الرسل فهو كاذب مكذب لله تعالى.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾[الأحزاب: ٦٣].

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[الزخرف: ٨٥]، فتقديم الخبر في قوله: ﴿ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ يفيد الاختصاص كما هو معلوم.

---

(١) سبق تخريجه.

والآية الخامسة: قوله تعالى في سورة النازعات: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾[النازعات: ٤٢ - ٤٤]، فقدم الخبر في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ ليفيد اختصاص ذلك به تبارك وتعالى.

هذه خمس آيات من كتاب الله تعالى كلها صريحة في أن علم الساعة خاص بالله تعالى لا يطّلعُ عليه ملكٌ مقرَّب ولا نبيٌّ مرسَل. وأما السنة فمنها ما سبق في حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فإن قيل: ما تقولون في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[طه: ١٥] حيث إن ظاهرها أنه تعالى لم يُخفها، فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أن كثيراً من المفسرين أو أكثرهم قال: معنى الآية: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ على نفسي، وهو من المبالغة في الإخفاء، كقوله ﷺ في المتصدق يخفي صدقته: «حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[1].

الثاني: هب أن ظاهر الآية أن الله تعالى لم يخفها على الناس، ولكن لغموض وسائل العلم بها صار كمن كاد يخفيها، فإن هذا الظاهر مدفوع بالنصوص الصحيحة الصريحة بأنه لا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله تعالى، وطريق الراسخين في العلم أن يحملوا النصوص المتشابهة على النصوص المحكمة لتكون النصوص كلها محكمة متفقة غير متنافية ولا متناقضة: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[آل عمران: ٧].

---

(١) اخرجه البخاري في صحيحه ح (٦٢٩)، (١ / ٢٣٤).

الثالث: إذا تمسك أحد بالظاهر وقال: إن المراد أكاد أخفيها على الخلق، فالجواب أن يقال:

الإخفاء ثلاثة أنواع: إخفاء ذكر، وإخفاء قرب، وإخفاء وقوع.

فأما إخفاء الذكر: فهو أن لا يذكر الله الساعة للخلق ولا يبين لهم شيئًا من أحوالها، وهذا محالٌ تأباه حكمة الرب جل وعلا، ويكذبه الواقع، فإن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان الستة، فالعلم به من ضروريات الإيمان، ولهذا لم يُخف الله تعالى ذكر الساعة، بل أعلم عباده بها وبين من أحوالها وأهوالها ما يشفي ويكفي فيما أوحاه إلى رسوله ﷺ من الكتاب والسنة.

وأما إخفاء القرب: فهو أن لا يذكر الله تعالى للخلق شيئًا من علاماتها الدالة على قربها وهي أشراطها، ولكن رحمة الرب الواسعة اقتضت أن يبين للخلق قرب قيامها بما يظهره من العلامات الدالة عليه ليزدادوا بذلك إيمانـًا ويستعدوا لها بالعمل الصالح المبني على الإخلاص لله تعالى والمتابعة لرسوله ﷺ، وفي كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ من أشراط الساعة ما يتبين به قربها إجمالاً تارة وتفصيلاً تارة أخرى.

وأما إخفاء الوقوع: فهو أن لا يذكر الله تعالى للخلق وقتـًا محدداً تقوم فيه الساعة، وهذا هو ما دلَّ عليه الكتاب والسنة، فليس في الكتاب والسنة تحديد لوقت قيام الساعة، بل فيهما النص الصريح الذي لا يحتمل التأويل بأن علم ذلك موكول إلى الله تعالى لا يعلم به ملك مقرب ولا نبي مرسل، وكل ما قيل في توقع وقت قيام الساعة فهو ظن وتخمين باطل مردود على قائله لمخالفته كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في أثناء جواب له عن المنجمين قال: «ووافقهم على ذلك من زعم أنه استخرج بقاء هذه الملة من حساب الجمّل الذي للحروف التي في أوائل السور، وهي مع حذف التكرير أربعة عشر حرفاً وحسابها في الجملة الكثير [كذا في الكتاب] ستمائة وثلاثة وتسعون، ومن هذا أيضاً ما ذكر في التفسير أن الله تعالى لما أنزل: {آلم}، قال بعض اليهود: بقاء هذه الملة إحدى وثلاثون، فلما أنزل بعد ذلك: {آلر}، و{آلمر}، قالوا: خلط علينا. فهذه الأمور التي توجد في ضلال اليهود والنصارى وضلال المشركين والصابئين من المتفلسفة والمنجمين مشتملة من هذا الباطل على ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وهذه الأمور وأشباهها خارجة عن الإسلام محرمة فيه، فيجب إنكارها والنهي عنها على المسلمين على كل قادر بالعلم والبيان واليد واللسان، فإن ذلك من أعظم ما أوجبه الله تعالى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهؤلاء وأشباههم أعداء الرسل وسوس الملل ولا ينفق الباطل إلا بثوب من الحق»[1].

وعلى هذا: فيُنزَّل قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ على النوع الثاني: وهو إخفاء القرب، فإنه سبحانه لم يخفها الإخفاء المطلق بترك ذكرها، ولم يبينها البيان المطلق بذكر متى قيامها، وإنما بين علاماتها وهي أشراطها، وأخفى علم قيامها وهذا مقتضى حكمته ورحمته، فإنه تعالى لو أبانها للناس لحصل لهم من الشر والفساد وتعطل المصالح ما لا يعلمه إلا الله، خصوصاً من كانوا قريبين من النهاية، ولكن الرب جل وعلا أخفى ذلك كما أخفى علم

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٨٩).

كل إنسان بنهاية حياته لئلا يستحسر ويدع العمل خصوصاً عند قرب حلول أجله، ومن تأمل ما أبانه الله تعالى لخلقه من أمور الغيب وما أخفاه عليهم تبين له من حكمة الله ورحمته ما يبهر عقله ويعلم به أن لله الحكمة البالغة والرحمة الواسعة فيما أبان وما أخفى ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الجاثية: ٣٦][1].

(١) انظر مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن صالح العثيمين – لا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله – (٢/ ٧٠-٨٠).

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المتقين، وخاتم الأنبياء والمرسلين.

وبعد، فإنه من خلال دراسة هذا الحديث العظيم، وهذه الأمور الغيبية التي أخبرنا بها الصادق المصدوق رسول الله ﷺ، يتبين ما يلي:

١- مفاتح الغيب الخمس محجوب علمها عن الخلق جميعاً، ولا يعلمها علماً ذاتياً إلا الله وحده، أما علم الله المحيط الشامل لعالم الشهادة، فليس من مفاتح الغيب الخمس.

٢- إن من الغيب: الغيبَ المطلق، وهو ما لا يعلمه إلا الله وحده كالخمس المذكورة في الآية والحديث، وغيبًا نسبيًّا: وهو ما غاب عن شخص دون غيره، فما يراه شخص في مكان ما، هو غيب عمن غاب عن ذلك المكان.

٣- وفقاً للقواعد الأصولية التي توجب الجمع والتوفيق بين النصوص الواردة في نفس الموضوع، فإن العموم الوارد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾[لقمان: ٣٤] يراد به الخصوص الوارد في الحديث: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله».

٤- لا يفهم من الآية والحديث أن أمور الغيب محصورة في هذه الأمور

الخمسة، وإنما خصت هذه الأمور الخمسة بالذكر دون غيرها من المغيبات؛ لتعلقها بأمور الإنسان واختصاصها به، منذ كان جنيناً إلى ساعة ومكان موته، إلى قيام الساعة التي يجهل وقوعها، فالآية تقريع للإنسان الذي يتطلع ويسأل عن موعد الساعة وهو لا يعلم أموراً تتعلق بحياته اليومية ووفاته وهو أحوج الى معرفتها من معرفة وقت قيام الساعة.

٥- بطلان كل دعوى يدعي صاحبها معرفة الغيب، لأنه لا أحد يعلم الغيب إلا الله.

٦- لا أحد يعلم ما تكتسبه نفسه أو ما يكتسبه غيره في المستقبل من علم وعمل ومال وما الى ذلك.

٧- لا تعارض الآية والحديث ما توصل إليه العلم في العصر الحاضر من القدرة على معرفة نوع الجنين، فهذا التحديد إنما جاء في مرحلة متأخرة من تكون الجنين، وليس في بدايات تكونه، هذا فضلاً عن اقتصار هذه المعرفة على تحديد الجنس فقط دون التطرق إلى معرفة ما بقي من أحوال الجنين من سعادة وشقاوة، ومعرفة أجله ورزقه.

٨- أن علم نزول الغيث مما اختص الله به، وما يخبر عنه خبراء الطقس والأرصاد إنما هو من باب توقع الحدوث لا الجزم بالحدوث، وعلى من يخبر بنزول المطر بناء على تلك التوقعات أن يقرن قوله بالمشيئة كأن يقول: يتوقع نزول المطر غداً إن شاء الله.

٩- أن لا أحد يعلم زمن ولا مكان موته ولا موت غيره، فهذا مما استأثر الله بعلمه وحجب العلم به عن جميع خلقه.

١٠- أن وقت الساعة مما اختص الله بعلمه فلا يعلم أحد زمن وقوعها، وإنما أخبرنا الرسول ﷺ بأماراتها وعلاماتها حتى يعلم الناس من ظهور هذه العلامات قرب وقوعها، وأن من يدعي أنه يعلم متى تقوم الساعة أو يحدد تاريخاً لنهاية العالم كما وقع في زماننا هذا، فهو كافر كفراً أكبرَ مخرجاً من الملة؛ لأنه مخالف لنصوص الكتاب والسنة، مكذب لله ولرسوله ﷺ.

١١- تكفير مدعي علم الغيب؛ وذلك لنسبته لنفسه ما استأثر الله تعالى به دون خلقه، ولأنه كذب القرآن في حصر علم الغيب بالله، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[النمل: ٦٥].

فهرس المصادر والمراجع

١ - أحكام القرآن، لأبي بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي، ت: علي البجاوي – دار الفكر – بيروت.

٢ - اسباب النزول، علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، ت: كمال زغلول، دار الكتب العلمية (١٤١١-١٩٩١)،

٣- الإيمان بالغيب، بسام سلامة ، ط١ (١٤٠٣-١٩٨٣) - مكتبة المنار – الأردن.

٤ - التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر – ط١ (١٩٨٤).

٥ - تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، محمد بن عبدالرحمن المباركفوري، دار الكتب العلمية – بيروت.

٦ - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، دار المعرفة – بيروت.

٧- تفسير القران العظيم، ابن كثير القرشي الدمشقي - دار طيبه (١٤٢٢/ ٢٠٠٢م).

٨- التفسير الكبير مفاتيح الغيب، لأبي عبدالله فخر الدين الرازي، ط٢- دار الكتب العلمية بطهران.

٩ - التنجيم والمنجمون،عبدالمجيد المشعبي ، مكتبة الصديق بالطائف، ط١ (١٤١٤).

١٠ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان/ للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ت: محمد النجار، الإدارة العامة للطبع

والترجمة بالرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية (١٤١٠).

١١- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري - دار المعارف - مصر.

١٢- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد القرطبي، دار احياء التراث العربي - بيروت.

١٣- رحلة عبر الغيب،عبدالكريم عثمان، ط١ - دار السلام - حلب.

١٤- زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج جمال الدين ابن الجوزي، المكتب الاسلامي - ط٣ (١٤٠٤).

١٥- شرح رياض الصالحين، الشيخ محمد بن صالح العثيمين، مدار الوطن للنشر (١٤٢٦).

١٦- شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، عبدالله الغنيمان، مكتبة لينا بدمنهور، ط١ (١٤٠٩).

١٧- صحيح البخاري، لأبي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري - ت: د. مصطفى ديب البغا - ط٣ (١٤٠٧)- دار ابن كثير ودار اليمامة بدمشق.

١٨- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأبي الفضل ابن حجر العسقلاني، ت: محب الدين الخطيب - المكتبة السلفية - ط٣ (١٤٠٧).

١٩- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق.

٢٠- القول في علم النجوم، ابي بكر علي بن أحمد المعروف بالخطيب البغدادي، ت: د. يوسف السعيد، ط١ (١٤٢٠/ ١٩٩٩) - دار اطلس - الرياض.

٢١ - لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، د.محمد دودح، موقع الاعجاز العلمي في القرآن والسنة *http://quran-m.com*.

٢٢- لا يعلم متى يأتي المطر إلا الله ، د. زغلول النجار، موقع الإعجاز العلمي في السنة *http://www.alsiraj.net/egaz/html/page17.htm* .

٢٣- لباب التأويل في معاني التأويل، لعلاء الدين علي البغدادي الشهير بالخازن، دار الفكر – بيروت – (١٣٩٩).

٢٤- لسان العرب، جمال الدين أبي الفضل محمد بن منظور، دار صادر، بيروت.

٢٥- مجموع الفتاوى، لأبي العباس تقي الدين ابن تيمية، دار المنار، (١٤٠٨/ ١٩٨٨).

٢٦- مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، جمع وترتيب فهد بن ناصر السليمان.

٢٧- المستدرك على الصحيحين، للحاكم ابي عبدالله محمد بن عبدالله النيسابوري - دار الكتاب العربي.

٢٨- المسند، لأبي عبدالله احمد بن حنبل الشيباني، ط٥ (١٤٠٥/ ١٩٨٥) - المكتب الاسلامي.

٢٩- معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، ت: خالد العك ومروان سوار - دار المعرفة - بيروت، ط١ (١٤٠٦).

٣٠- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية - القاهره، ط٣ (١٩٩٨).

٣١- مفاتح الغيب وعلم ما في الأرحام د. عبدالجواد محمد الصاوي،

موقـــع الهيئـــة العلميـــة للإعجـــاز العلمـــي في القـــرآن والســـنة .http://www.eajaz.org

٣٢- مفردات غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ت: محمد كيلاني - مصطفى الحلبي - مصر.

فهرس الموضوعات

الموضوع .... الصفحة